تنوير الأفهام في فقه الأشهر الحرُم

إن خير ما أوتي المرء من خصال: حس مرهف وشعور يَقِظ، وقلب نقي، وعقل فَطِن، يبعث على تعظيم ما عظَّمَه الله، والوقوف عند حدوده، واستشعار حرمة ما حرَّمَه، والنفرة من انتهاكها بحُسْن الامتثال لأمره ونهيه، وكمال الانقياد لشرعه، ورجاء جميل العاقبة في الإخلاص له، والاتباع لخاتم أنبيائه ورسله عليه أفضل الصلاة والسلام، لنيل رضوانه ومغفرته ونزول دار كرامته، (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) [النِّسَاءِ: 69].

إن الله -تعالى- يختص بحكمته ورحمته ما شاء من الأزمنة والأمكنة بما شاء من العبادات والقربات التي يزدلف العباد القانتون المخبتون بها إليه، مبتغين بها الوسيلة في سَيْرِهم إلى ربهم، بحُسْن القدوم عليه، ولقد كان مما كتبه -عز وجل- وافترضه على لسان خليله إبراهيم وولده إسماعيل -عليهما السلام-: تحريم أشهر من السنة وتعظيمها بتحريم القتال فيها، وتواتر ذلك التحريمُ حتى نقلته العرب بالتواتر القولي والعملي، وتلك هي الأشهر الأربعة التي أشار إليها -سبحانه- بقوله: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [التَّوْبَةِ: 36].

وبينها رسول الهدى -صلوات الله وسلامه عليه-بقوله في خطبة حجة الوداع: "إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ -تَعَالَى- السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ؛ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ" (أخرجه الشيخان في صحيحهما)، من حديث أبي بكرة -رضي الله عنه-.

وإنما قال عليه الصلاة والسلام "رجب مُضَر" ليبين صحة قول هذه القبيلة في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان كانت لا تغيره، بل توقعه في وقته، لا كما تظن قبيلة ربيعة مِنْ أنَّ رجبَ المحَرَّم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضانُ اليوم.

للأشهر الحُرم منزلةٌ عظيمةٌ عند الله -تعالى-، فقد اختصّها الله من بين شهور السنة، كما اختصّ غيرها من الخَلْق، والأزمنة، والأمكنة؛ فقد اختصّ من خَلْقه الرُّسل والملائكة، كما اختصّ من مواضع أرضه المساجد، ومن أيّام السنة يوم الجمعة، ومن الليالي ليلة القَدْر، ويدلّ على تلك المنزلة أنّ الله جعل الذنوب والمعاصي فيها أشدّ إثماً، بينما جعل الطاعات والعمل الصالح أعظم ثواباً وأجراً، والظلم فيها أشد قُبحاً، وأعظم وِزْراً عمّا سواها من الشهور.

الأشهر الحُرُم هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وسُمِّي الأول بذلك؛ لقعودهم عن القتال والترحال؛ استعدادا لموسم الحج والثاني؛ لوقوع الحج فيه والثالث؛ تأكيدا لحرمته والرابع من الترجيب وهو التعظيم.

وإنما كانت الأشهر الحرم على هذه الصفة ثلاثة سرد وواحد فرد كما قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: "لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، وحرم قبل شهر الحج شهر وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يُوقِعُونَ فيه الحجَّ، ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرَّم بعده شهرًا آخر؛ وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى نائي بلادهم آمنين، وحرم رجبًا في وسط الحَوْل؛ لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه آمنا". انتهى كلامه –رحمه الله–.

الحِكمة من تحريم الأشهر الحُرم تأتي الأشهر الحُرم كمحطّةٍ بين رُكنَين من أركان الإسلام، وهما: الصيام، والحجّ؛ إذ يأتي شهر رجب المحرّم قبل شهر رمضان، فيكون فرصةً للاستعداد لصيام رمضان؛ تلك العبادة الجليلة التي تحتاج إلى شحذ النفوس، ومجاهدة النفس لتَرك ما تحبّه، بينما تأتي فريضة الحجّ في الأشهر الحُرم؛ لتتفرّغ النفس للعبادة، ففرضيّة الحجّ فيها مَشقّةٌ تتطلّب بَذْل الجُهد والطاقة لأداء المناسك على الوجه المشروع.

حُرِمَت؛ لأن الناس يحجون ويعتمرون؛ الحج يحتاج لذهاب وإياب وبقاء في مكة؛ قالوا: الشهر الذي قبل ذي الحجة للذهاب والشهر ذو الحجة لأداء النسك، وشهر المحرم للإياب؛ هذه ثلاث أشهر يحرم فيها القتال، ويأمن فيها الناس؛ حتى أن الواحد من الناس يشاهد قاتل أبيه في هذه الأشهر ولا يقتله!

للأشهر الحرم أحكاماً خاصة ليست لغيرها من الأشهر الأخرى، ومن تلك الأحكام:

❶ حرمة ابتداء قتال الأعداء ❷ تعظم الذنوب ❸ تضاعف الثواب والحسنات ❹ زيادة الديات.

وأما استدارة الزمان فهي عودة حساب الشهور إلى ما كان عليه من أول نظام الخلق الذي كتبه الله وقدره، فوقع حجه –ﷺ– في تلك السنة في ذي الحجة الذي هو شهره الأصلي، ذلك أنهم –كما قال أهل العلم بالحديث؛ كالإمام الخطابي والحافظ ابن حجر وغيرهما– كانوا على أنحاء: منهم من يسمي المحرم صفرا، فيحل فيه القتال ويحرم القتال في صفر ويسميه المحرم.

فكانوا يخالفون بين أشهر السنة بالتحليل والتحريم والتقديم والتأخير لأسباب تعرض لهم، منها: استعجال الحرب فيستحلون الشهر الحرام ثم يحرمون بدله شهرا غيره، فتتحول في ذلك شهور السنة وتتبدل.

وذلك هو النسيء الذي ذمه الله –تعالى– وبين أنه زيادة في الكفر؛ لأنه تشريع ما لم يأذن به الله مضاف إلى أصل كفرهم بالله والشرك به فقال عز من قائل: (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) [التَّوْبَة: 37]، فتشريع الحلال والحرام والعبادة هو حق لله وحده، فمن شرَّع من عند نفسه شرعًا فقد نازع الله –عز وجل– في حقه، وذلك شرك بربوبيته كما دل عليه قوله –سبحانه–: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ...) [الشُّورَى: 21].

فيُضلون به سائر من يتبعهم من الكافرين، الذين يتبعونهم فيه ويتوهمون أنهم لم يخرجوا به عن ملة إبراهيم –عليه الصلاة والسلام–؛ حيث واطؤوا فيه عدة ما حرم الله من الشهور في ملته، وهذا من ظلم النفس في الشهر الحرام الذي نهى عنه ربنا بقوله: (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) [التَّوْبَة: 36].

وظلم النفس يشمل كل محظور يوبق المرء فيه نفسه، ويدخل فيه: هتك حرمة الشهر الحرام دخولا أوليًّا محقَّقًا، وهذا الظلم للنفس كما يكون بالشرك بالله –تعالى– وهو أعظم ظلم لها، كما قال تعالى على لسان لقمان: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لُقْمَانَ: 13]، فإنه يكون أيضا بالتبديل والتغيير في شرع الله، والتحليل والتحريم لمجرد الهوى والآراء الشخصية والاجتهادات والاستحسانات التي لا يسندها دليل صحيح من كتاب ربنا، أو سنة نبينا –ﷺ–.

لذلك يجب على المؤمن أن يعظم ما عظم الله ولا يتشبه بالكفار في اتباع الهوى والزيغ لأجل إرضاء النفس، ولو كان بسخط الله، ويصل لدرجة كراهية أحكام الله والعياذ بالله، فيناله الغضب والوعيد من الله المذكور في الآيات بإحباط أعماله، (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)[محمد:27-28]

ويكون ظلم النفس أيضا: باقتراف الآثام واجتراح السيئات في مختلف دروبها، فالذنب سوء وشؤم وظلم للنفس في كل زمان؛ لأنه اجتراء على العظيم المنتقم الجبار، المحسن إلى عباده من نعم الخاصة والعامة، المتحبب إليهم بالآلاء وهو الغني عنهم، لكنه في الشهر الحرام أشد سوءا، وأعظم جرما، وأفدح ظلما؛ لأنه جَامِعٌ بين الاجتراء والاستخفاف وبين امتهان وانتهاك حرمة ما حرمه الله وعظَّمه واصطفاه، فكما أن المعاصي تغلظ في البلد الحرام لقوله –عز اسمه–: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الْحَجّ: 25]، فكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "لأن أخطئ سبعين خطيئة بغير مكة أحب إليّ من أن أخطئ خطيئة بمكة".

وكان جماعة من الصحابة يتقون سكنى الحرم، خشية ارتكاب الذنوب فيه، منهم ابن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وكذلك كان عمر بن عبد العزيز يفعل، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول :الخطيئة فيه أعظم.

قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: "إن الله اختص من الأشهر أربعة أشهر، جعلهن حراما وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيها أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم".

فالزمان الفاضل تعظم فيه السيئات:(يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)، والمكان الفاضل تعظم فيه السيئات:(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)، وقد تضاعف السيئات بشرف فاعلها وقوة معرفته بالله وقربه منه:(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ)، وكذلك تعظم السيئات عندما تكون فيها تعدي على من خصهم الله من الاشخاص بمزيد من الحرمة مثل الوالدين والاقارب والجار، قال-ﷺ-:"إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، ثُمَّ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، ثُمَّ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، ثُمَّ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، ثُمَّ يُوصِيكُمْ بِالأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ "،" لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ "" لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ" البخاري الادب لمفرد، وهذا كله سواء تعظيم المكان أو الزمان والاشخاص ، اختبار صدق المؤمن وتعظيمه لما يعظم الله وتمحيص وابتلاء ليظهر الصادق المحب لله المطيع المنقاد من المدعي الكاذب.

وقال قتادة -رحمه الله-: "قال قتادة في الأشهر الحُرم: "الظُّلْمُ فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَعْظَمُ خَطِيئَةً وَوِزْرًا مِنَ الظُّلْمِ فِيمَا سِوَاهَا، وَإِنْ كَانَ الظُّلْمُ فِي كُلِ حَالٍ عَظِيمًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُعَظِّمُ مِنْ أَمْرِهِ مَا شَاءَ"، وقال أيضاً: "فَعَظِّمُوا مَا عَظَّمَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا تُعَظَّمُ الأُمُورُ بِمَا عَظَّمَهَا اللَّهُ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ وَأَهْلِ الْعَقْلِ".

قال القرطبي: «لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب، لأن الله سبحانه إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة، وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعددة فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيئ كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح، فإن من أطاع الله في الشهر الحرام في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام، ومن أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في شهر حلال في بلد حلال».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «تحفظوا على أنفسكم فيها واجتنبوا الخطايا، فإن الحسنات فيها تضاعف والسيئات فيها تضاعف».

قال ابن عاشور: "إن الله جعلها مواقيت للعبادة فإن لم يكن أحد متلبس بالعبادة، فليكن غير متلبس بالمعاصي، وليس النهي عن المعاصي فيها يقتضي أن المعاصي في غير هذه الأشهر ليس منهيا عنها، بل المراد أن المعصية فيها أعظم وأن العمل الصالح فيها أكثر أجرا، ونظيره قوله تعالى:(وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) فإن الفسوق منهي عنه في الحج وفي غيره".

يجب أن نعظم ما عظَّم اللهُ، ومنها هذا الشهر الحرام المقبل علينا رجب، نعظمه بما شرَع اللهُ، وباتباع سنة الحبيب الهادي رسول الله -ﷺ-، وحذار من الابتداع حذار، حذار من الابتداع في دين الله ما لم يأذن به الله.

وقد أمر الله بتعظيم الأشهر الحرم، ومن صور تعظيم الأشهر الحرم:

1. عقد العزم الصادق بالتوبة والإنابة إلى الله والهمة العالية على تعمير هذه الأشهر بالأعمال الصالحة.

❷الابتعاد عن الظلم بجميع أنواعه في هذه الأشهر لقوله تعالى: (فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} (التوبة:36)، والظلم هنا يشمل المعاصي كلها؛ كبيرها وصغيرها، بترك الواجبات وفعل المحرمات، مما يتعلق بحقوق الخالق والمخلوق.

❸ومن صور تعظيم الأشهر الحرم: أن انتهاك الحرمات وخاصة في هذه الأشهر فيه زوال للحسنات ولو كانت عظيمة، فعَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ:« لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ».قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ قَالَ : « أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا ». (رواه ابن ماجه وصححه الألباني).

❹ومن صور تعظيم الأشهر الحرم: تحري فعل الخيرات في هذه الأشهر، ليظفر بفضيلة مضاعفة الثواب.

وتتجلى الحكمة في مضاعفة الأجر والثواب في الأشهر الحرم في «رحمة الله تعالى بالمؤمنين، وحسن تربيته لعباده، والأخذ بأيديهم برحمة وحكمة، فلو أنه سبحانه ضاعف الوزر كامل السنة لربما هلك الصالحون بمضاعفة ما قد يأتون من معصيتهم وظلمهم لأنفسهم؛ إذ أنهم ليسوا بمعصومين، فكان أن جعل الله تعالى الحرمة والمضاعفة خاصة بأربعة أشهر فقط، ليستطيع المسلم شد إزاره والاجتهاد فيها أكثر ما يستطيع، ثم ليكون ذلك دربة له في باقي الأشهر المخففة، وهكذا إذا اتَّقى الله تعالى وجاهد نفسه؛ وجد نفسه في سائر الشهور متقيا محترسا متيقظا، قد صار له ذلك عادة وسجية».

فيجب علينا أن نُعظم ما عظم الله، فإن تعظيمنا يُعد عبادة قلبية من أجلّ العبادات، فحين تدخل هذه الأشهر نستشعر تحريمها وتعظيم الله لها، وننوي فعل الطاعة وترك المعصية فيها وفي كل وقت وزمان.

حَرِيٌّ بمن رضي بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا أن يحجز نفسه عن الولوغ في الذنوب، وينأى بها عن مزالق الخطايا، ويكفها عن التلوث بأرجاس الإثم، وأن يترفع عن دواعي الهوى والنزوات والشطحات الموبقات المهلكات وتسويل الشيطان وتسويل النفس الأمارة بالسوء، وخطرات الشيطان وخطواته، وأن يذكر على الدوام أن الحياة أشواط ومنازل، تفنى فيها الأعمار وتنتهي الآجال، وتنقطع الأعمال، ولا يدري المرء متى يكون الفراق لها، وكم من الأشواط يقطع منها، وإلى أي مرحلة يقف به المسير.

فالسعيد مَنْ سَمَتْ نفسُه إلى طلب أرفع المراتب، وإلى ارتقاء أعلى الدرجات من رضوان الله ومحبته وغفرانه، فلنتق الله باستدراك ما فات، واغتنام ما بقي من الأزمنة الشريفة والأوقات الفاضلة المباركة، والتزام المسلك الراشد والنهج السديد في هذا الشهر الحرام وفي كل شهور العام بالإقبال على موائد الطاعة، ورياض القربات والاستمساك بما صح وثبت عن سيد الأنام -عليه الصلاة والسلام-، وَنعرض عن كل البدع التي لا أصل لها، في كتاب الله ولا في سنة رسوله -ﷺ-.

ذكرنا أن الأشهر الحرم هي: رجب وذو القعدة وذو الحجة وشهر الله المحرم، فرجب شهر حرام، وأخطأ من ظن أنه لا مزية لشهر رجب على غيره، يقولون شهر رجب كباقي شهور السنة ولا ميزة له عليها... نقول: هذا خطأ، وهذه هي ميزته على باقي شهور السنة؛ أنه شهر من شهور الله الحرام.

فهي قاعدة تقول: إذا عظَّم الله مكانًا أو زمانًا، كانت المعصية فيه أعظم إثمًا، والطاعة فيه أعظم أجرًا.

قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: "وأما الصيام فلم يصح في فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النبي-ﷺ-ولا عن أصحابه" يعني فضل خاص في رجب في صيام رجب بخصوصه، وأما الصيام مطلقا فهو مندوب إليه في رجب وفي غيره.

ونحذر من بدعة صلاة الرغائب من البدع المحدثة في شهر رجب، وتكون في ليلة أول جمعة من رجب ، بين صلاتي المغرب والعشاء ، يسبقها صيام الخميس الذي هو أول خميس في رجب .

قال النووي رحمه الله في "المجموع" (548/3) :" الصلاة المعروفة بصلاة الرغائب , وهي ثنتا عشرة ركعة تصلى بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة في رجب , وصلاة ليلة نصف شعبان مائة ركعة وهاتان الصلاتان بدعتان ومنكران قبيحتان ولا يغتر بذكرهما في كتاب قوت القلوب , وإحياء علوم الدين , ولا بالحديث المذكور فيهما فإن كل ذلك باطل ، ولا يغتر ببعض من اشتبه عليه حكمهما من الأئمة فصنف ورقات في استحبابهما فإنه غالط في ذلك , وقد صنف الشيخ الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي كتابا نفيسا في إبطالهما فأحسن فيه وأجاد رحمه الله " انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في رسالته: "تبيين العجب في بيان ما ورد في فضل رجب" قال: "لم يرد في فضل شهر رجب ولا في صيام شيء منه معين، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه حديث صحيح يصلح للحجة"، ثم أورد -رحمه الله- ما ورد من الأحاديث في ذلك، وهي ما بين موضوع مختلق على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو الأكثر، وبين ضعيف لا يحتج بمثله.

ولنا مع قوله تعالى: (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ)، وقفة: وقفة نقفها مع العاكفين على الذنوب والمعاصي الناسين لله وللآخرة، مع من يسهرون أمام الشاشات ليلهم، ويقضون في اللهو نهارهم، مع الغافلين عن أنهم حتمًا سيموتون ويدفنون ويقبرون.....

وما أجملَ ما قالَهُ الإمامُ ابنُ الجَوْزِيُّ: مُخاطِباً الضمائرَ، شاحِذاً الهِمَم-: هذه أوقات مُعَظَّمَة، وساعاتٌ مكرَّمة، وقد صيَّرتُم ضُحاها بالذُّنُوبِ عَتَمةً! فبيِّضُوا بالتَّوْبَةِ صُحُفَكُم المظْلِمة! فالمَلَكُ يكتُب خُطاكُم ونَفَسَكُم... (فلا تظلمُوا فيهنَّ أنفُسَكُم).

أيها المقيمين على المعاصي أقصروا ، أقصروا ، أقصروا... توبوا إلى الله يتب الله عليكم، ولا تقنطوا ولا تيأسوا من رحمته -عز وجل-، لا تقولي ذنوبي كثيرة؛ فإن مغفرة الله أكثر، ولا تقل خطاياي عظيمة؛ فإن رحمة الله أعظم، والله يناديك قائلًا: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[الزمر: 53]، وقال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)[النساء:110].

وعن أبي موسى الأشعري أن النبي-ﷺ-قال: " إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا"(صحيح مسلم)، وعن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله -ﷺ-يقول: " قالَ اللَّهُ تعالى : يا ابنَ آدمَ إنَّكَ ما دعَوتَني ورجَوتَني غفَرتُ لَكَ على ما كانَ فيكَ ولا أُبالي ، يا ابنَ آدمَ لو بلغَت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لَكَ ولا أبالي ، يا ابنَ آدمَ إنَّكَ لو أتيتَني بقِرابِ الأرضِ خطايا ثمَّ لقيتَني لا تشرِكُ بي شيئًا لأتيتُكَ بِقِرَابِها مغفرةً"(السلسلة الصحيحة).

فما زلنا في مهلة، وما زالت لنا فرصة؛ فعن ابن عمر أن النبي -ﷺ-قال: " إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغِرْ "(الترمذي)، وعن أبي سعيد الخدري عن النبي -ﷺ-أنه قال: "إن الشيطانَ قال: وعزّتِكَ يا ربِّ، لا أَبرَحُ أُغوي عِبادَكَ ما دامتْ أرْواحُهم في أَجْسادِهم، قال الرَّبُّ: وعزَّتي وجَلالي، لا أَزالُ أَغفِرُ لهم ما استَغْفَروني". "(صحيح الترغيب)

كيف تكون مُعظِّمًا للأشهر الحُرُم؟

لأكون شخصًا مُعظِّمًا للحرمات هناك خطوات:

أول خطوة: التعلم عن الحُرمات.

فالحُرُمات هي ما تقترفه [الجوارح والقلوب]؛ واعلم أن من المحرمات ما هو دقيق، فالقلوب قد تقترف من المحرمات ما قد تغلب به الجوارح.

والمحرمات التي قد تقترفها القلوب تبتدئ بالشرك إلى الظنون.

الخطوة الثانية: اعلم أن الذنوب تتفاوت من جهة العمل القلبي المصاحب للذنب.

أي أن الإرادات المستقرة تؤثر، فشخص عنده إرادة مستقرة لحب الله وطاعته ثم غفل؛ يختلف عن آخر عنده إرادة مستقرة لحب الذنوب وارتكابها.

الخطوة الثالثة: الخوف منها واجتناب الطرق الموصلة لها "من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيها" ...

الخطوة الرابعة: تكرار التوبة والإنابة.

ثانيًا: الشعائر

قال تعالى: "ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ" [الحج: 32]

⇦ [والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة] كالصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة وغيرها؛ وكل الأوامر الشرعية البارزة التي يحبها الله عزَّ وجل.

ولأكون شخصًا معظّمًا للشعائر في الأشهر الحُرُم خطوات:

الخطوة الأولى: ترتيب الأولويات ومحبة ما يحبه الله.

وأولى الأولويات الصلاة، أحب ما يحبه الله فعل الأمر وترك النهي، قال رسول الله -ﷺ-: "وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ"صحيح البخاري

الخطوة الثانية: مداومة الذكر، فدوام الذكر إشارة التعظيم.

ودوام الذكر يأتي من كون قلب العبد بين ثلاثة رياح: الحب، والرجاء، والخوف

فتارة يبعثه على الذكر الحب، قال-ﷺ-: يقولُ اللَّهُ تَعالَى:" أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً " رواه البخاري ومسلم.

وتارة يبعثه على الذكر: الرجاء، قال-ﷺ-: من قال "اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ قَالَ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ".صحيح البخاري

وتارة يبعثه على الذكر: الخوف قال-ﷺ-: " مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ تِرَةٌ (حَسْرةً ونَدامةً)، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ تِرَةٌ" صحيح أبي داود

الخطوة الثالثة: أن يظهر من جوارحي الإحسان إلى المخلوقين.

فالعبد كلما كان مُعظِّمًا لشعائر الله؛ زاد إحسانًا إلى الناس، بدليل أن الله يجمع دائما بين ذكر الصلاة والزكاة لأن الصلاة فيها الاحسان في عبادة الخالق والزكاة فيها الاحسان للمخلوقين، والحرص على الإحسان يقابله غض الطرف عن الإساءة.

قال ابن القيم: اعزمُوا -اليومَ- على تَرْكِ الذُّنُوب، واجتهِدُوا في إزالةِ العُيوب، واحْذَرُوا سَخَطَ علامِ الغُيوب، واكتُبوا على صَفَحات القُلوبِ (فلا تَظْلِمُوا فيهنَّ أنفُسَكُم).

الْتَزِمُوا حُدودَ الله -تعالى-، أقيموا فرائضَ الله، واجتَنِبُوا مَحارِمَهُ، أدُّوا الحُقوقَ فيما بينكم وبينَ ربِّكُم، وفيما بينكم وبين عبادِهِ، واعْلَمُوا أنَّ الشيطانَ قد قَعَدَ لابنِ آدمَ كُلَّ مرصدٍ، وأقسمَ للهِ لَيَأْتِيَنَّهُم مِن بينِ أيديهم ومِن خلفِهم، وعن أيْمانِهِم وعن شمائِلِهم، ولا يجدُ أكثرَهُم شاكِرين أقسمَ للهِ بعزَّةِ اللهِ ليُغْوِيَنَّهُم أجمعين؛ إلا عبادَ الله المخْلَصِين.

إنَّ الشيطانَ لَحَرِيصٌ كُلَّ الحِرْصِ على إغْواءِ بَنِي آدمَ وإضلالِهم؛ يصدُّهُم عن دينِ الله، يأمُرُهُم بالفحشاءِ والمنكرِ، يُحَبِّبُ إليهم المعاصي، ويُكَرِّهُ إليهم الطاعاتِ: يأتِيهِم مِن كُلِّ جانبٍ، ويقذفُهم بسهامِهِ مِن كُلِّ جهةٍ.

تزوّد للذي لا بُدَّ مِنْهُ فإن الموت ميقاتُ العبادِ
وتُبْ مِمَّا جَنَيْتَ وأَنْتَ حيٌّ وكُنْ مُتَنَبِهاً قَبْلَ الرُّقَادِ
ستَنْدَمُ إنْ رَحَلْتَ بِغَيْرِ زَادٍ وتَشْقَى إذْ يُناديك المُنَادِ
أَتَرْضَى أن تكونَ رَفِيقَ قَوْمٍ لهمْ زادٌ وأنْتَ بِغَيْرِ زَادِ؟!

وفي الختام نسأل الله أن يجعلنا من الموحدين المعظمين للحرمات، المتقين الله حق تقاته.

❶تعظيم الأشهر الحرم: أسامة بن عبد الله خياط.
❷الأشهر الحرم بين التعظيم والاستهانة – خطب مختارة: ملتقى الخطباء – الفريق العلمي.
❸الأستاذة أناهيد السميري تعظيم الأشهر الحرم.